الملتقى الدولي المخطوط العربي الواقع والآفاق

كلية الآداب واللغات – جامعة محمد بوضياف بالمسيلة–

عنوان البحث : تحقيق المخطوط في الجزائر مكاسب وعوائق

الاسم واللقب : معمري عبد الكريم

الدرجة العلمية : أ مساعد أ

الجامعة : محمد بوضياف بالمسيلة .

الاسم واللقب : سلاف سعودي

الدرجة العلمية : طالبة دكتوراه

تخصص أدب مغاربي حديث.

محور البحث : علم المخطوطات في الجزائر والعالم العربي

ملخص البحث :

يعد المخطوط وثيقة حية على حضارة أمة ما وثقافتها ، فهو الشاهد على تتالي الحقب الزمنية وما وقع فيها من انتصارات وانكسارات على مختلف الأصعدة أدبية كانت أو تاريخية ، ولأنه جزء من تاريخنا تتكاثف الجهود لإخراج هذه المخطوطات إلى العلن ، والجزائر واحدة من الدول العربية التي تولي اهتماما بالغا بإرثها المخطوط لذا يعكف ثلة من المحققين على نفض الغبار عنها ، بيد أن هذه المجهودات المبذولة تبقى غير كافية أحيانا لبلوغ المرمى إذ تصطدم بعوائق جمة تحيل بينها وبين أهدافها .

Résumé de la recherché

Le manuscrit est un document vivant sur la civilisation d'une nation et de sa culture, témoin de la succession des temps, des victoires et des échecs à divers niveaux littéraires et historiques, et parce que cela fait partie de notre histoire, les efforts pour publier ces manuscrits sont publiés. Cependant, ces efforts sont parfois insuffisants pour atteindre l'objectif, car ils rencontrent de nombreux obstacles qui mènent à leurs objectifs .

توطئة :

تحرص كل أمة من الأمم على صون تراثها ماديا كان أو غير مادي ، لأنه يشكل هويتها وعماد كيانها وتعد المخطوطات إحدى أهم حوامل هذا التراث والتراث المخفي خاصة ، باختلاف أنواعها أدبية كانت أو تاريخية ، فهي وثائق حية ودرر نفيسة لما تكتنزه جعبها من أنباء عن عهود خلت وأقوام رحلت وسلف مكثوا يوما ما ، لذا فلا عجب في تلك الحظوة التي استأثر بها المخطوط على مر السنين ؛ فهو سلاح ذو حدين قد يطيح بأمة من عليائها وقد ينفض عنها غبار التزييف وينتشلها من الوحل

والأمة العربية وبتاريخها الطويل والتليد تنام على خزانة لا عد لها من المخطوطات ؛ نظرا لتأخر ولوج الطباعة إليها أُسوة بباقي الأقطار ما ساهم في التكاثر الرهيب والتضاعف المنقطع النظير في رقم المخطوط العربي يُزاد على ذلك التعاقب والتناوب الحضاري الذي تعرضت له المنطقة العربية لترسو أخيرا على بر الإسلام دينا والعربية لسانا ولغة ، ولأن الاستقرار أيا كان لونه يمنح الفرصة والسبق والتنقيب عن المناقب والمآثر ، عن ما حصل سالفا كان لابد من التعويل على المخطوطات فهي الوحيدة القادرة على البوح ، فانهال علماء العربية على إخراج هذه الكنوز من كهوفها عن طريق إعادة طرح المخطوط بصيغة تتماشى والعصر وهو ما يصطلح عليه بعملية " تحقيق المخطوط"

والمشهود له أن المخطوطات العربية في عمومها كانت ومازالت مشتتة التوزيع ؛ فهناك التي ليست في وطنها وبين أهلها هاجرت مع أصحابها وأخرى رُحلت غصبا عنها وجزء آخر لقي حتفه ظلما وعدوانا بحرقه أو إهماله حتى انقرض ، أما عملية التحقيق هي الأخرى لم تكن رحيمة بالمخطوط العربي أحيانا فتعرض للزيف والتحريف أو يتم إخراجه بطريقة سيئة لا تتوافق ومكانته ؛ وكان لغير العرب نصيبهم في تحقيقه وهذا كان له وما عليه وقسم أهل العربية بين مرحب ومنفر ، إلا أنه مهد لتحقيقات عربية أتت فيما بعد، وتم استلهام الأسس العلمية للتحقيق من تلك التحقيقات التي قام بها المستشرقون

والجزائر لم تشذ عن القاعدة وراحت هي الأخرى تخرج مخطوطاتها للعلن وإن كانت هذه الانطلاقة متأخرة كثيرا عن باقي الأشقاء مشرقا ومغربا نظرا لظروفها الاستعمارية المريرة ولأحوالها السياسية المتقلبة بعد الاستقلال ؛ فكل هذه المراحل الصعبة لم تشفع للثقافة عموما بالنهوض ومنها تحقيق تراث الجزائر المخطوط خصوصا ، بيد أنه لوحظت جهود في سبيل استرجاع بعضا من هذا التراث المتناثر بالخارج وتحقيق ما وُجد بالداخل عل ذلك يزيل

اللبس والغموض عن جوانب مازالت لم تبح بكل أسرارها ، لذا سنحاول في مداخلتنا هذه والموسومة ب " تحقيق المخطوط في الجزائر مكاسب وعوائق " أن نقف عند واقع تحقيق المخطوط في الجزائر وأين وصلت العملية ، كما أننا سنعرج لأمر مخطوطات الجزائر بالخارج وخاصة بإفريقيا وفرنسا ، كل هذا من خلال إثارة الأسئلة التالية :

- كيف هي وتيره تحقيق المخطوط الجزائري ؟

- ما مصير التراث الجزائري المخطوط بالخزائن الخارجية ؟

- هل هناك إحصائيات رسمية لهذا التراث ؟

- ما ظروف عمل المحقق ؟

وهدفنا من هذه الدراسة محاولة الكشف عن بعض الجوانب المبهمة التي تكتنف عملية تحقيق المخطوط في الجزائر والتعريف بالعراقيل التي تحول دون بلوغ المسعى ، واستعنا في هذه الدراسة بالمنهج التاريخي عندما تقصينا تعاريفا للمخطوط وما يرافقه من تحقيق ، وكان لا بد لنا من مرافقة المنهج التحليلي في وصف وتحليل حال المخطوط الجزائري

1- في المخطوط وتحقيقه

قبل أن نغوص في بحر المخطوط الجزائري وأحواله ، كان لزاما علينا أن نمر أولا عند مفهوم المخطوط وكذلك المقصود بتقنية " التحقيق " ؛ إذ هناك شبه توافق على تعريف المخطوط مع تسجيل بعض الفروقات فهو " الكتاب أو الكراسة ، الذي كتب على ورق أو نحوه ، بخط اليد قبل نشأة الطباعة بنحو قرن ونصف القرن أو قرنين على وجه التقريب ، لأن الطباعة عرفت في الأقطار العربية والإسلامية على تفاوت "[1] ووصلت عند البعض وبطء ولوجها دول عربية أخرى ، غير أن هذا التعريف يقصر المخطوط على ما كتب بيد صاحبه على الورق دون سواه وهذا ما عارضه آخرون وأن " المخطوط بخط عربي سواء أكان على شكل لفائف أو في شكل صحف ضم بعضها إلى بعض في دفاتر أو كراريس "[2]وقد تكون في لفائف ورق البردي المعمول به إبان الحضارة الفرعونية وحتى الرسومات والكتابات على الصخور هناك من يلح على إدخالها ضمن دائرة التراث المخطوط

[1] – عصام محمد الشنطي : فصول في التراث المخطوط ، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ط1،القاهرة ، مصر ، 2012 ، ص 25.

[2] – ميري عبودي فتوحي : فهرسة المخطوط العربي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1980 ، ص 9.

وغير بعيد عن الشكل الموجود عليه المخطوط ، تتدخل اللغة " إذ أن هناك مخطوطات إسلامية كتبت بالخط العربي ، ولكن بلغات غير عربية كالفارسية والأردية ، والتركية القديمة وغيرها "[1] ما فرض على الدارسين ومعهم المحققين تقسيم التراث المخطوط فرعين والغاية من ذلك فك الغموض والإبهام واعتبار " المخطوطات من جهة لغتها وحروفها ... نوعين ؛ الأول المخطوطات العربية ، وهي التي كتبت باللغة العربية تمييزا لها عن المخطوطات الإسلامية ، وهي النوع الثاني التي تعنى بالتراث الإسلامي ، لكنها كتبت بلغة غير العربية "[2] وتظل المنفعة واحدة في المخطوط إسلاميا كان أو عربيا ، فالإسلام ديننا والعربية لغتنا

ورغم شبه السجال هذا إلا أن بوادر توافق واضحة من إعطاء التراث المخطوط حدا يكاد يكون جامعا مانعا و" هو ما وصل إلينا من مؤلفات ومصنفات مكتوبة بخط مؤلفها،أو بخط أحد النساخ قبل عصر الطباعة "[3]

الذي حل متأخرا ، ما ولد تناسلا غير مسبوق للمخطوطات العربية ووشح بأنه " أطول مخطوطات العالم عمرا وأكثرها عددا ، فمن ورائنا أربعة عشر قرنا من التراث المخطوط وهو تراث ضخم لا يتوفر في أي أمة "[4] من الأمم وموجود في كل مكان ، هناك من أُخرج إلى النور وهناك من ينتظر دوره للإفصاح عن ما بخوالجه ؛ كل ذلك لا يتأتى إلا عن سبيل عملية علمية تعرف ب " التحقيق " أو " علم تحقيق المخطوطات "

– فما المقصود بعملية تحقيق المخطوط ؟

إذا نحن رجعنا واقتفينا أثر المعنى اللغوي لكلمة تحقيق فإنها " تدور حول إحكام الشيء وصحته ، والتيقن والتثبت ولا شك أن هذه المعاني لها ارتباط وثيق بالمدلول الاصطلاحي "[5]الذي لا يبتعد عنه كثيرا فهو " إخراج الكتاب على أسس صحيحة محكمة من التحقيق العلمي في عنوانه واسم مؤلفه ، ونسبته إليه ، وتحريره من التصحيف والتحريف ، والخطأ ، والنقص والزيادة "[6] وإزالة كل الشوائب عنه ليبدو في حلة جديدة لا تختلف عن المؤلف العصري ليجد الإقبال وينعم بالتلقي

[1] – عبد العزيز بن محمد المسقر : المخطوط العربي وشيء من قضاياه ، دار المريخ للنشر ، المملكة العربية السعودية ، ص 69.

[2] – عصام محمد الشنطي : المرجع السابق ، ص 26.

[3] – عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان : تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1415هـ ، ص 39.

[4] – ميري هبودي فتوحي : المرجع السابق ، ص 54.

[5] – عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان : المرجع السابق ، ص 35.

[6] – عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان : المرجع السابق ، ص 36.

ونافلة القول من المعنيين اللغوي والاصطلاحي هو الحرص على التثبت والعمل على منطلقات سليمة وفق منهجية علمية قوامها " المحافظة على الأصل دون العبث به بزيادة أو نقص على غير أساس علمي ، ومتابعة الأصل بالنسخ الأخرى المختارة "[1] ليتطابق المضمون وتُزال الشكوك ، فما على المحقق سوى " تحرير النص وقراءته قراءة صحيحة على النحو الذي جاء به عند مؤلفه "[2]وللغرض ذاته سُنن للتحقيق معايير لا بد من إتباعها اتقاءًا للخلط الذي ينذر بعواقب وخيمة ، وهذه المعايير وضعت الأمانة العلمية نصب عينيها وأعطتها الأولوية والسبق ولم تغفل عن المحقق فاعل هذه العملية

2– معايير في تحقيق المخطوط

ولأنه واجهة كل أمة والحامل لماضيها الواصل لراهنها ومستقبلها ولمكانته وخطورته في الآن نفسه ، كان لا مفر من فرض شروط على كل من تسول له نفسه تحقيق مخطوط ، والغاية من ذلك تقليص دائرة المحققين وإنصاف المجدين المخلصين في هذا الميدان ، ومن هذه المعايير ذكرا لا حصرا :

– توخي الصدق أثناء النقل و" الأمانة العلمية التي تقتضي تحرير النص وتصحيحه ، والاجتهاد في إخراجه على الصورة التي تمت به على يد مؤلفه دون أي تصرف "[3] من لدن المحقق وهذا ما من شأنه أن يسيء للمخطوط من جهة ولصاحبه من جهة أخرى لو صرح المحقق بأفكاره واتجاهه وألغى ما جاء به النص الأصلي

– وجود رغبة وعلاقة مودة بين المحقق والتراث المخطوط بعيدا عن الأثر المادي و" الحب والتعلق بتراثنا المخطوط ومعايشته ، وتوثيق الصلة به على نطاق واسع قراءة ودراسة وخبرة ، ودراية بأسراره ودقائقه "[4]وليس كل من هب ودب باستطاعته إخراج مخطوط ، فالنشاط علمي ولا يُقدم عليه إلا أهل الاختصاص درءًا وحماية " من العبث بالتراث تحريفا وتغييرا وتبديلا وحذفا انطلاقا من الأهواء الشخصية أو المذهبية "[5] التي جرت معها مخطوطات قيمة وُظفت في هذا الصراع المقيت الذي لا يمت للإسلام بصلة

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 37.

[2] – *المرجع نفسه ، ص 37.*

[3] – *المرجع نفسه ، ص 41.*

[4] – المرجع نفسه ، ص 41.

[5] –عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان ، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل ، ص 42.

– عملية التحقيق عملية علمية بحتة تُسند لمن يتوفر على " الخبرة والتمرس بتحقيق المخطوطات ، والدراسة الواسعة بأصول تحقيقها "[1] ليكون في حجم المسؤولية ، ويضاف على ذلك " الإلمام الواسع باللغة العربية أساليبها ومفرداتها وسائر علومها "[2] ليخيط للمخطوط ثوبا جديدا ويزيل عنه ثوبه البالي الرث ويتماهى مع أقرانه من الإصدارات ، هذه الحيثية – التحكم في أصول العربية وقواعدها – هي من قسمت علماء العربية اتجاه تلك المخطوطات التي عكف محققون غير عرب على تحقيقها فمنهم من بارك هذه العملية ومنهم من امتعض منها ودعا إلى النظر فيها وإعادة التحقيق إن كان " السابق على غير منهجية علمية ، وأن النص غير مخدوم البتة "[3]وإن كان يُحسب للمحققين من غير أصول عربية مدهم لنظرائهم العرب مقاييس التحقيق وأسبقيتهم هي التي حركت العرب وألهمتهم لتحقيق تراثهم بأيديهم

– من المسلمات أن للمخطوطات شأنها ، بيد أنها تتفاضل وتتمايز في ظروف معينة وليس كل مخطوط جيد بل للرديء إن لم نقل المبتذل حضور ، لذا فالسؤال الجديد القديم " هل كل كتاب مخطوط أيا كان نوعه يستحق النشر "[4] ما حذا بأصحاب الرأي إلى إعلاء همم مخطوطات والعمل على تسريع وتيرة تحقيقها ، وأخرى قُرر أنه " من الخير لها بقاؤها مطمورة مثل كتب السحر ، والكهانة ، والتنجيم والعقائد المنحرفة ، والأفكار الهدامة ولا سيما في غياب حركة النقد والتوعية اللازمة بالأخطار والمفاسد التي تنطوي عليها هذه الكتب "[5] فمضمون المخطوط وحده الكفيل بتحديد قيمته وعليه يتحدد مصيره بالبقاء في الأدراج حتى الاندثار أو الخروج إلى الساحة أدبية كانت أو تاريخية وحتى سياسية

3– الجزائر وتراثها المخطوط

[1] – *المرجع نفسه ، 41.*

[2] – المرجع نفسه ، ص 42.

[3] – *عصام محمد الشنطي ، فصول في التراث* المخطوط ، ص 37.

[4] – عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان ، المرجع السابق ، ص 39.

[5] – المرجع نفسه ، ص 50.

لا يخفى على أحد أن الجزائر بلد بحجم قارة ليس فقط بمساحته بل بتاريخه وثقافته ، فلا اندهاش في ما بحوزته من ثروة مخطوطات تضاهي ثرواته الطبيعية التي استودعها **الله عز وجل جلاله** فيه ، فكل حقبة مرت عليها الجزائر إلا وخلفت من ورائها ركاما من المخطوطات ، وهذا يشهد لمعاصريها بالفطنة والذكاء لأنهم آثروا ترك ما عاشوه وما عايشوه للخلف ، لكن هناك تدخلات على عدة مستويات أبت أن يبقى هذا الإرث كله حاضرا ، وفي ذلك نطرح الأسئلة التالية :

– أين تتمركز مخطوطات الجزائر بالداخل ؟

– ماذا عن مخطوط الجزائر بالخارج؟ وهل هناك عملية منظمة لاسترجاعه ؟

– ما سر التذبذب الحاصل على مستوى تحقيق المخطوطات ؟

يشهد تراث الجزائر المخطوط تناثرا رهيبا في الداخل محفوظا بمراكز رسمية وأخرى غير رسمية وبالخارج أيضا " لكن بعضها بقي في الخزائن العمومية كخزائن المساجد والمحاكم ونقل إلى المكتبة الوطنية وأصبح رصيدها الآن يتجاوز 6500 مخطوط بعضها أصلي والبعض الآخر مصور "[1] وسافر جزء مهم وأخذ طريقه إلى وجهات معلومة وغير معلومة عبر العالم مما استدعى إطلاق مصطلح " مخطوط الجزائر بالخارج " ، وإذا عدنا إلى مخطوط الداخل يلاحظ تمركزه بمنطقة الجنوب الجزائري لأنها " منطقة عبور وتواصل بين مختلف الشعوب القاطنة في شمال إفريقيا وفي جنوبها وبذلك شكلت المنطقة ومنذ أزمنة غابرة خيط تواصل وعطاء بين هذه الشعوب جميعا "[2] ومنحها الريادة على باقي الجهات ، وهذه الأخيرة لا يعني انعدامه فيها فقط " الفرق في الكمية ، لذا تمتاز مناطق الجنوب الجزائري بكثرة المخطوطات في مراكزه العلمية حيث لا يخلو بيت من وجود عدد من المخطوطات "[3] متوارث جيلا عن جيل ، فالعائلة تعتبره كنزا لا بد من الاحتفاظ به حتى يحقق

أما مخطوطات الجزائر بالخارج تكاد تعادل ما بالداخل ، فظروف الجزائر المتلونة تداعى لها المخطوط فأُتلف وهُجر ونُهب ورحل مع أصحابه ، ففي حاضنتنا الإفريقية ترقد " مئات المخطوطات المحفوظة حاليا في خزائن ومكتبات موريتانيا ومالي والنيجر وغانا ونيجيريا ، والسنغال ، إضافة إلى خزائن ومكتبات الشمال الإفريقي

[1] – *مختار حساني ، التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج ،ج1* تاريخ الجزائر من خلال المخطوط (كتاب الشماريخ نموذجا) ، منشورات الحضارة ، ط1 ، الجزائر ، 2009 ، ص 7.

[2] –أحمد أبا الصافي جعفري ، كتاب المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الإفريقية ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، 2015 ، ص 11.

[3] – بشار قويدر ، مختار حساني ، فهرس مخطوطات أدرار ، أعمال المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، ص12.

في كل من المغرب ، تونس، ليبيا ومصر "[1] وفي بقية الدول العربية وبنسب متفاوتة ، وهذه " الخزائن جميعها تختلف فيما بينها أهمية وتواجدا ، وإن كان متوسطها لا يقل عن مائتي مخطوط تقريبا بينما وصل العدد في البعض الآخر منها الألفي مخطوط "[2] في أرجاء إفريقيا ، أما الشق الأوربي فلا يختلف عن نظيره الإفريقي ففرنسا الاستعمارية فعلت فعلتها في تراث الجزائر وهي التي لم تتوان برهة في محاربة كل ماله صلة بالهوية ، فبعد اغتصاب الأرض والتنكيل بالعباد ، تم نهب ومصادرة المخطوط الجزائري وبلغ الأمر حد حرقه ، وأخرى تم ترحيلها عدوانا "إلى بلاده للانتفاع بها خدمة لأبنائه ، وقد فعل ذلك لإلحاق البلاد بفرنسا لغة ودينا وسلوكا وفكرا "[3]وبعد أن عاث فسادا وقبيل خروجه الذليل من أرض الأبطال قام بإتلاف بعض خزائن المخطوطات " ومن أبرز الخزائن خزانة باي بقسنطينة وخزانة محمد الكبير بوهران ، وخزانة الأمير عبد القادر "[4] كمحاولة أخيرة يائسة بعد أن خسر الرهان ورجع يرجع أذناب الخيبة بفعل تمسك الجزائريين بهويتهم الإسلامية العربية

وغداة الاستقلال **والحمد لله عز وجل جلاله** على هذه النعمة ولأن حجم الدمار كان مهولا معنويا وماديا لم يُعن بالتراث المخطوط حينما إلا النزر القليل وواصلت المخطوطات طريقها في الضياع والتشرد والنهب "لعدم الاعتناء بهذا التراث وإدراك أهميته لدى أصحاب بعض الخزائن ، وهو ما جعل عدد هام من الباحثين الأوربيين يتصلون بهؤلاء ويأخذونها منهم بأثمان كما حدث في وادي ميزان حيث نجد أهم المخطوطات الإباضية تتواجد في خزائن أوربية وعلى الخصوص بولندا "[5] من باب استغلال الفرص وانتهازية هؤلاء الباحثين في مقابل جهل أصحاب الخزائن لقيمة هذه الدرر وحاجتهم للمادة .

وحتى البقية الباقية من مخطوطات لم تك في استقرار و" البعض من علماء الجزائر نقلو معهم خزائنهم إلى الدول التي هاجروا إليها مثل بلاد الشام ومصر والمغرب الأقصى وتونس "[6] وهناك مخطوطات " تجمع لدى الأسر والأفراد وهم يحرسون عليه باعتباره ميراث ثمين خلفه لهم أسلافهم ، فيعملون على ترتيبه وحفظه وفهرسته بطرق

---

[1] – أحمد أبا الصافي جعفري ، كتاب المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الإفريقية ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، 2015 ، ص *23*.

[2] – المرجع نفسه ، ص 23.

[3] – شوقي براركة ، التراث المخطوط بالصحراء الكبرى ، حفظه ومراكزه وإتاحته للباحثين ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، ع 15 ، 2011 ، ص 60.

[4] – *مختار حساني* ، التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج ،ج1 تاريخ الجزائر من خلال المخطوط (كتاب الشماريخ نموذجا) ، ص *06*.

[5] – المرجع نفسه ، ص 07.

[6] – مختار حساني ، التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج ،ج1 تاريخ الجزائر من خلال المخطوط (كتاب الشماريخ نموذجا) ، ص07.

غير مقنعة "[1] لكن وفق قدراتهم وفي حدود إمكانياتهم البسيطة المتواضعة وذلك فيه خير له تجنبا لهلاكه حتى يحين تحقيقه

فالتراث المخطوط في الجزائر قديما وحديثا لم يخرج عن نطاق ثلاثة أمور نهب تم من خلال إستراتيجية تبنتها فرنسا لحاجة في نفس يعقوب ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى الحرق وإسكات تلك المخطوطات إلى الأبد ، والأمر الثاني تمثل في الضياع نتيجة لجهل قيمته وتدخلت أطراف واستغلت الوضع وحصلت على ما تريد من مخطوطات ، والأمر الثالث هجرته مع أصحابه خارج الوطن ، تلك هي مسيرة المخطوط الجزائري الذي مازال جزء هام منه هنا وآخر هناك وراء الحدود ، وقد بدأت عملية التحقيق له ومازالت جارية لإخراجه على الطريقة العلمية السليمة

4- واقع تحقيق المخطوط في الجزائر وجدلية الكم والكيف

كان لزاما على الجزائر وعلمائها أن يلجوا معركة تحقيق المخطوطات ولو متأخرين عن نظرائهم العرب لظروف البلاد ولذلك " بدأ المؤرخون الجزائريون في كتابة تاريخهم الوطني بعد الاستقلال من موقع دفاعي ، أي الدفاع عن الهوية الجزائرية والتاريخ الجزائري العريق الذي حاولت المدرسة الفرنسية طمسه وتشويهه ، وبدأت البواكير الأولى لهذه الأعمال تظهر مع نهاية عقد الستينات وبداية السبعينيات من القرن الماضي "[2] فالوضع حتم الرجوع للمخطوط الغابر عله يبوح بأسرار ويفند أباطيل مزعومة ، بيد أن " هذه الالتفاتة ، وهذا الاهتمام بدأ يظهر وبشكل فردي لدى طائفة من الباحثين الذين أدركوا أهمية توظيف التراث المخطوط سواء أثناء أعمالهم البحثية أو العمل على تحقيق بعض المخطوطات التي تيقنوا من أهميتها التاريخية "[3]فقط وليس عن رغبة كلية وجماعية في الرجوع للمخطوط وبكل أنواعه والحرص على إظهاره بل انتظار إلحاح الحاجة ، ما فوت فرصا لتحقيقه كما وكيفا و" هذه الأعمال ظلت مبادرات فردية ولم ترق إلى مستوى سياسة وطنية "[4]ولكنها ضربة البداية تبعتها أشواط أخرى في تحقيق المخطوطات

[1] – ليندة شقرة ، التراث المخطوط في بجاية ، مجلة الثقافة ، ع 8 ، 9 ، 2006 ، ص 192.

[2] – عبيد بوداود ، حصيلة خمسين سنة من تحقيق المخطوطات التاريخية في الجزائر ، مجلة المواقف ، ع 7 ، 2012 ، ص 162.

[3] – المرجع نفسه ، ص 162.

[4] – عبيد بوداود ، حصيلة خمسين سنة من تحقيق المخطوطات التاريخية في الجزائر ، مجلة المواقف ، ص 162.

و " هذه المبادرات ورغم محدوديتها ، وفقدانها للتحقيق الجيد ، نبهت الباحثين الجزائريين فيما بعد لأهمية هذه النصوص "[1] وضرورة زيادة الجهد وتلك الجهود المبدئية والمحتشمة " عمل عدد من الباحثين الفرنسيين على تحقيق بعض النصوص المخطوطة وترجمتها إلى الفرنسية... لم تتوخ الموضوعية العلمية ، كما غلب على منهجها تخريج النصوص دون التعليق عليها ، هذا الإخراج جاء سقيما بسبب محدودية مستوى أولئك الباحثين باللغة العربية والخط العربيين "[2] فأهل مكة أدرى بشعابها ، ولأن رب نافعة ضارة تم التفطن لضرورة بذا أقصى الجهود لتحقيق أكبر عدد ممكن من التراث المخطوط وفي هذا المقام "لا بد أن ننوه ببعض الأعمال الجليلة التي قام بها بعض المؤرخين الجزائريين من أمثال أبي القاسم سعد الله ، وناصر الدين سعيدوني ويحي بوعزيز ، ورابح بونار "[3] وغيرهم ممن أفنوا حياتهم خدمة للمخطوط وكانت لهم بصمتهم فيه

ورغم ذلك تبقى مسيرة المخطوط الجزائري غير مواكبة لحجمه ولتطورات العصر ، ولم تبلغ بعد المرجو منها " والإقدام على تحقيقها ظل محتشما منذ السنوات الأولى للاستقلال ، وإلى غاية الآن وإن كانت وتيرة التحقيق في حالة تصاعد "[4] غير مقنع ولا يستند إلى أسباب منطقية لتوفر إمكانيات لا بأس بها والتشجيع الذي تحظى به العملية من لدن السلطات ، إلى أن السؤال يبقى نفسه

- أين مكمن الخلل ؟

5- عوائق تحقيق المخطوط في الجزائر

وفي غياب أرقام رسمية عن مدى التقدم في مضمار تحقيق المخطوطات بالجزائر ، إلا أن بوادرا تتحدث عن أعطاب بالجملة ألمت بهذه العملية وجعلتها تنتكس حينا وتنهض أخرى رغم تدخل الدولة من خلال منح أموال وإنشاء مراكز متخصصة في هذا الغرض ، إلا أن النتائج لا تتطابق وذلك ، وأضحى المخطوط لا يذكر إلا في المناسبات الثقافية ، في حين تقطع دولا عربية وأخرى جارة خطوات عملاقة في إخراج مخطوطاتها ، وعليه نرصد بعض المشاكل التي حالت دون أن يُكتب للمخطوط الجزائري إخراجا يليق به

[1] - المرجع نفسه ، ص 163.
[2] - المرجع نفسه ، ص 163.
[3] - المرجع نفسه ، ص 180.
[4] - المرجع نفسه ، ص 163.

– غياب أرقام رسمية عن التراث المخطوط " فليس هناك حتى الآن سجلا كاملا بالمخطوطات التي هي بحوزة الأفراد والأسر "[1]وحتى التي في مراكز رسمية لم تُحظ بأرقام وفهرسة و" غياب أو عدم تحيين فهرسة للتراث المخطوط والمتناثر هنا وهناك ، مما صعب أمام الباحثين إمكانية الإطلاع على عناوين المخطوطات ، فالمكتبة الوطنية لم تعرف فهرسة كاملة لكل مخطوطاتها منذ العمل الأول الذي قام به إدموند فاشيون سنة 1893م"[2]وهذا مشكل خطير ، إن لم يُتدارك الوضع وتتم عملية إحصاء شاملة للمخطوط في كل مكان وفهرسته ، وحتى المخطوطات التي قُدر لها وإن حققت نلحظ " غياب بيبلوغرافيا جزائرية شاملة متجددة كل سنة أو ستة أشهر يمكن من خلالها الإطلاع على الأعمال المنشورة ، بما في ذلك المهتمة بشأن المخطوط نشرا وتحقيقا "[3] تُمكن الباحث من فرز المخطوط المحقق من عدمه وتجنبه عناء البحث ومغبة الوقت لأن " أخطر ما يواجه الباحث قي ميدان تحقيق النصوص ، عجز المحاولات التي تزوده بمعلومات عما طبع من كتب التراث ، وما لم يطبع وبالتالي إمداده بتوصيف لهذه الطبعات ليرى إن كانت تحتاج لتحقيق جديد "[4] فندرة المعلومات أو عدم وجودها يُدخل الباحث في دوامة وهذا العائق حرم العديد من الباحثين من تحقيق مخطوطات مازالت على قائمة الانتظار وأخرى على حافة الضياع

– تأثرت حركية تحقيق المخطوط في الجزائر برحيل بعض المؤرخين من أمثال شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله وغيره ممن كانت لهم الريادة والبصمة و" الباحثين الشباب لم يجدوا التشجيع من قبل الهيآت العلمية في الجامعات لانخراط في هذا النوع من الدراسات "[5] وظل مُهابا لا يُقترب منه ، ما أحدث قطيعة بين المخطوط والشباب الأكاديمي

– وفي حقل البحث العلمي فإن " برامج دراسة التاريخ في الجامعات الجزائرية قلما تعكس اهتماما بتحقيق المخطوطات ، ويمكننا التأكد من هذه الحقيقة من خلال الإطلاع على عناوين المقاييس المعتمدة من قبل الوزارة الوصية "[6] ما أبعد المخطوط عن أسوار الجامعة ، وبقي حبيس رفوف المكتبات ، وهذه القطيعة ستستمر إن لم تُستحدث مقاييس خاصة بالمخطوط أو فتح مشاريع دكتوراه فيه

---

[1] – ليندة شقرة ، التراث المخطوط في بجاية ، مجلة الثقافة ، ص 192.

[2] – عبيد بوداود ، حصيلة خمسين سنة من تحقيق المخطوطات التاريخية في الجزائر ، مجلة المواقف ، ص181– 182.

[3] – المرجع نفسه ، ص 182.

[4] – عصام محمد الشنطي ، فصول في التراث المخطوط ، ص 107.

[5] – عبيد بوداود ، المرجع السابق ، ص 179.

[6] – عبيد بوداود ، حصيلة خمسين سنة من تحقيق المخطوطات التاريخية في الجزائر ، مجلة المواقف ، ص180

– كما أن الوسائل المادية لعبت دورها هي الأخرى ، فمن البديهي أن المخطوط كائن هش يتأثر بالظروف الطبيعية من حرارة ورطوبة قد تؤديان إلى إتلافه ولذلك هناك " ضعف توفير الأجهزة الخاصة بقراءة المخطوطات المسجلة عبر الميكروفيلم والميكروفيتش في المكتبات المتخصصة ، بما في ذلك المكتبات الجامعية ومراكز البحث "[1] التي مازالت تعمل بوسائل بدائية بعيدة كل البعد عن العصرنة ومواكبة تكنولوحيا الإعلام والاتصال

– المناسباتية وغياب إستراتجية وطنية لتحقيق المخطوط ، فبات لا يُذكر إلا في مناسبات ثقافية معينة تحتضنها الجزائر وفيها يتم تحقيق كمية من المخطوطات ، رغم استحداث الدولة لمراكز أُنشئت لهذا الغرض غير أن نتائجها لم تصل بعد إلى المتوقع " ونحن في هذه المرحلة نحتاج إلى الإخراج الجيد لكل النصوص الجزائرية المخطوطة حتى نربح الرهان في معركة إنقاذ المخطوطات الجزائرية من الأخطار التي تتهددها "[2]على جبهات عدة ، ولعل الخطر الداهم هو الضياع في كنف هذه المشاكل التي لا تريد أن ترحل حتى تشتد وتيرة تحقيق التراث المخطوط الذي " لا يزال بكرا "[3] يتلمس سبيله لحال أفضل خاصة بوجود الدعم المادي من قبل الجهات الوصية وباحثين متخصصين في الميدان

وفي ختام دراستنا هذه والتي دارت حول التراث المخطوط في الجزائر واقعه وعوائقه وكذا المكاسب المتحصل عليها ، أمكننا الخروج بجملة من النتائج نشير إلى أهمها :

– للجزائر تراث مخطوط بحجم ثروة ، يتمركز بالداخل والخارج

– تعرض المخطوط في الجزائر إلى عملية نهب وحرق من قبل المستعمر ، كما تغربت أخرى مع أصحابها

– تعج الزوايا والمساجد وحتى البيوت بآلاف المخطوطات التي تنتظر الإحصاء والفهرسة

– عملية التحقيق تسير ببطء شديد ولم تشهد بعد قفزة نوعية

– الأخطار تتربص بالتراث المخطوط نتيجة الإهمال والمناسباتية

[1] – المرجع نفسه ، 182.

[2] – المرجع نفسه ، ص 181.

[3] – المرجع نفسه ، ص 183.

– بعض المخطوطات المحققة كانت هزيلة ولم تف بالغرض ، يلزم لها إعادة إخراج وهذا يحيلنا إلى القول أن ليس كل باحث مخول بالتحقيق الذي له شروطه

– لا مستقبل للتراث المخطوط دون المرور على عملية الإحصاء والفهرسة

– التكيف مع العصر أثناء تحقيق المخطوطات

مراجع البحث :

1– أحمد أبا الصافي جعفري ، كتاب المخطوطات الجزائرية وأعلامها في المكتبات الإفريقية ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، 2015

2– بشار قويدر ، مختار حساني ، فهرس مخطوطات أدرار ، أعمال المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ

3 – عبد العزيز بن محمد المسقر ،المخطوط العربي وشيء من قضاياه ، دار المريخ للنشر ، المملكة العربية السعودية

4– عبيد بوداود ، حصيلة خمسين سنة من تحقيق المخطوطات التاريخية في الجزائر ، مجلة المواقف ، ع 7 ، 2012 ،

5 – عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان ، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1415هـ

6 – عصام محمد الشنطي ،فصول في التراث المخطوط ، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ط1،القاهرة ، مصر ، 2012
– ميري عبودي فتوحي ، فهرسة المخطوط العربي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1980

7– شوقي براركة ، التراث المخطوط بالصحراء الكبرى ، حفظه ومراكزه وإتاحته للباحثين ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، ع 15 ، 2011

8– *مختار حساني ، التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج* ،ج1 تاريخ الجزائر من خلال المخطوط (كتاب الشماريخ نموذجا) منشورات الحضارة ، ط1 ، الجزائر ، 2009 ، ص 7.

9– ليندة شقرة ، التراث المخطوط في بجاية ، مجلة الثقافة ، ع 8 ، 9 ، 2006 .